ندوة مجلة الآداب

«الآداب» وبيروت

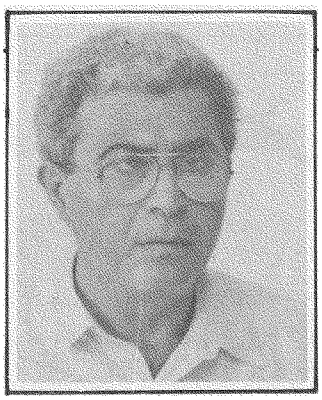

الياس خوري

في القديم، كانت بيروت محاطةً بسور له سبعةُ أبواب. وكانت أبواب المدينة تقفل في اللّيل وتفتح في النّهار. ومن صدفِ الأيّام وحكمتها، أن يحمل أحدُ أبواب بيروت القديمة اسم: باب ادريس.

زال السّورُ وزالت الأبوابُ. لم تعد بيروت محاطةً بالحجارة والأقفال. زالت أبوابُها السبعة، وبدل الأبواب القديمة بُنيت أبوابٌ جديدة تحمي المدينة وتدافع عنها وتفتحها على الآفاق.

والأبواب الجديدة ليستْ من خشب وحديد. إنّها أبواب هشّةٌ مصنوعة من الورق والعرق والحبّ... أبوابٌ فتحها جبران في مهجره الأميركي، وبناها جرجي زيدان ويعقوب صرّوف في القاهرة، ثمَّ جاءتْ إلى بيروت وصار اسمها **المكشوف والأديب**، وأتى سهيل إدريس وحوّلها حكايةَ عمرٍ **وأصابعَ تحترق**. صار للأبواب أسماءٌ جديدة، وصارت المدينة مسيَّجَة بالرّوح والفكر والحرّيّة. فهناك بابُ **الآداب** وباب **شعر** وباب **الثّقافة الوطنيّة** وباب **الطريق** وباب **مواقف** وباب **شؤون فلسطينيّة** وباب **دراسات عربيّة** وباب **الكرمل** وباب **المستقبل العربي** وباب **الفكر العربي**... أبوابٌ بُنيتْ وانهدمتْ وهاجرتْ وعادتْ وصمتتْ وماتزال تقاومْ... أبوابٌ للرّوح والفكر... أبوابٌ صُنِعَتْ بجهود كبيرة وأحلام، كي تسوّر المدينةَ وتحميها.

فبيروت الّتي صمدت للحصار الطّويل، لم تصمد فقط لأنَّ إرادة الحياة في نسائها ورجالها كانتْ أقوى من الحدث، بل لأنَّ أبوابها كانت مصنوعةً من ورق تلاصقتْ فيه الأفكارُ والأسماءُ، الحقائقُ والأحلامُ، التغييرُ واحتمالاته.

ومن بين أبواب الرّوح في بيروت، كانت هذه المجلّة الّتي فتحتْ صفحاتها للجديد والمبدع والخلّاق. صنعناها وصنعتْنا، ودخلنا معها طوالَ أكثر من أربعين سنةً في حوارٍ وجدل ونقاش. كأنَّ صفحاتها كانت مسوّدات للرّواياتِ والأشعار والأبحاث، وكأنَّ أغلفتها كانت أسواراً لنا في الزّمن العربي العادي المطروحِ على رصيفِ الهزيمة والإحباط.

كان باب الأدارسة في **الآداب** أعرق أبواب المدينة وأكثرها ثباتاً. كان موجوداً دائماً، فبدا وكأنّه جزء من الأشياء. هو هناك ولا حاجة للسّؤال عن وجوده أو توكيده. يكون لأنّنا بحاجة إليه، ويسدّ هذه الحاجةَ بشكل لا يجعلنا نسأل عن ظروف هذا الوجود وصعوباته.

وها هو اليوم في المحنة الجديدة، حيث ينحني العالمُ العربي للعاصفة المتوحّشة القادمة من البعيد مروراً بالصّحراء وبهذا السّلام الأعرج المشوّه الّذي لا يشبه السّلام، ها هو هذا الباب أمامنا، نستند إليه إذا شئنا ونكتب فيه إذا جاءتنا الكتابة، ونحتمي به إذا خفنا، ونحبُّه إذا بقي لنا شيءٌ من الحبّ نقدّمه لأرواحنا.

لست أنا من سيروي الحكاية. فمؤلِّف هذه الحكاية هو بطلها. هذا الرّجل الّذي اسمه سهيل إدريس، يجلس بيننا اليوم مستمعاً لشذراتٍ من حكايته الطّويلة مع مجلّة كانت أحدَ أبرزِ مؤلّفاته. فـ **الآداب** هي الرّواية الكبرى الّتي لم يكتبها مؤلّف **الحيّ اللاّتيني** و**الخندق الغميق** بقلمه؛ كتبها بحبّه لنا، فكانت أقلامُنا وسيلتَه لكي يكتب أطولَ رواية عربيّة حديثة. روايةٌ كتبتْها مئاتُ الأقلام، ومجلّةٌ تشبه الباب، وبابٌ مفتوح على الضوء والعتمة، وأحلامٌ تتجدّد لحظةَ موتها.

* * *

المجلّةُ باب، والمدينةُ مرآة.

بابٌ لمرآة: هذه هي العلاقة بين **الآداب** وبيروت.

كانت بيروت مرآة العرب، وكانت **الآداب** باباً ومرايا صغيرة واحتمالات. وبعد أن دُمِّرتْ بيروت وصار العربُ مرآة لها، تحوّلت **الآداب** إلى باب وذاكرة.

كانت بيروت تقيم مع العالم العربي علاقةَ حبّ غامضة. المدينة تعكس العرب وهم يعكسون صورتها في تخيّلهم ويصنعون أحلام التغيير.

هذه هي بيروت الخمسينات والستّينات والسبعينات: مدينة التوازن بين الديموقراطيّة والديكتاتوريّة، ومدينة اللّقاء بين الحلم والكابوس؛ مدينة يختلط فيها أقسى التوحُّش المركنتيلي بأقسى الحنين إلى أندلس الرّغبات؛ مدينة فيروز والشّعر الحديث والمثقّفين الهاربين واللاّجئين السياسيّين، ومدينة رؤوس الأموال والبنوك.

بيروت لم تكن واحدة.

كانت عدّة مدن في مدينة واحدة، ولكلّ مدينةٍ أبوابُها.

في حلبة هذه التناقضات جاءت **الآداب**.

كانت مجلّة وكانت مشروعاً ثقافيّاً وكانت موقفاً.

أقلامُنا كانت وسيلة سهيل إدريس لكي يكتب أطول رواية عربيّة حديثة، اسمها «الآداب»!

من وجوديّة سارتر إلى واقعيّة رئيف خوري، ومن حنّا مينة إلى إدوار الخرّاط، ومن نجيب محفوظ إلى سعيد تقي الدّين وتوفيق يوسف عوّاد، ومن غسّان كنفاني إلى محمود درويش. أسماء وأسماء: «أنشودة المطر» للسيّاب، وأدونيس وعبد الصّبور وحجازي وخليل حاوي وفدوى طوقان ونزار قبّاني وسعدي يوسف. من جيلي النّكبة الأولى إلى جيلي النكبتين الثانية والثالثة. كلّهم اجتمعوا في باب **الآداب** وخاضوا على صفحاتها معاركهم الفكريّة والنقديّة والسّياسيّة. وأخيراً، جاء جيلنا، من المتاريس والمخيّمات وغبار الحروب جاء، فوجد طريقاً مليئة بالخطى، مشى عليها واكتشف أنَّ البداية ممكنة دائماً، وأنَّ الحياة قادرة على التجدّد.

في هذه المجلّة ارتسمت علاماتٌ لا تمحى، وفيها تبلورت اتّجاهاتُ الحداثة الرّوائيّة والشعريّة والنقديّة.

وفي بيروت بدت الحداثة وكأنّها مقسومة إلى نصفين: نصف في **الآداب**، ونصف في **شعر**. وفي النّصفين أنصافٌ كثيرة: **الأديب والثّقافة الوطنيّة والطريق**. وفي هذا الانقسام بدت بيروت ملعباً للصراع الذي اجتاحَ المشرق العربي في خياراتِهِ الأساسيّة. وكنّا نقرأ **الآداب** ونحبّ عبد النّاصر ونكتشف اليسار؛ وكنّا أيضاً نقرأ شعر، ونتوق إلى التجديد الكامل ونُسحر بالبيان الجديد. ولم نكن نفهم ذلك الانقسام؛ كأنّه كان تعبيراً عن انقسام بيروت على نفسها.

المدينة المرآة، عكست كلَّ التيّارات الّتي حبل بها وَطنٌ عربيٌّ دخل القرن العشرين مجرَّحاً بالهزائم، وها هو يخرج منه والهزيمة تتوالد فيه إلى ما لانهاية.

لكنَّ المرآة لم تكن محايدة.

كانت مرآة للجديد والمختلف، للتيّارات القوميّة والعلمانيّة واليساريّة والحديثة، فكانت المدينة أكبر من الوطن الّذي جُعلت عاصمة له، وكانت أبواب المدينة أكبر من المدينة نفسها.

في هذا التناقض بين المدينة ولبنان، وبين الثّقافة اللّبنانيّة وبيروت، تحوّلت الحرب من آلة تغيير إلى آلة تدمير. انفجرت أحشاءُ لبنان في بيروت، وانفجرتْ في خضم المواجهات مع الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين المسألةُ الشرقيّة بكلّ تعقيداتها، واكتشفنا أنَّ حداثتنا كانت ناقصة، وأنَّ ثورتنا كان ينقصها فكرٌ جديد يسيطر على المجتمع ويغيّره في آن.

في المأزق اكتشفنا حدود حداثتنا، واكتشفنا أيضاً أنَّ الأشياء لا تتغيّر إلاَّ إذا غيّرناها نحن، وأنَّ المسألة لاتزال في بداياتها. وجدت بيروت نفسها في الحجيم، وبدأت أبوابُها تتخلّع وتتكسّر. وفي تلك الأيّام المظلمة، أيّام الاحتلال وما تلاه من جنون الطوائف والعشائر، كانت قلّةٌ من المثقّفين تحاول أن تقاوم. ويومها دفعنا الثّمن الغالي، يومها قتلوا حسين مروّة ومهدي عامل وصبحي الصّالح، يومها كانت الكلمة تساوي الحياة، وكان الموقف يساوي الموت.

في تلك الأيّام أعدنا اكتشاف سهيل إدريس من جديد. كان يقف على باب بيروت يستقبل آخر نبضاتنا، وكنّا معه نحاول أن نكتب على زمن الاحتلال احتمالاتِ المقاومة.

* *

بعد أكثر من أربعين سنة لا ننظر إلى الوراء، بل إلى قُدّام. يجب أن لا يكون الوراءُ هو الأمام، حتّى لو كانت صفحاتُ هذا الوراء مضيئةً مثل صفحات **الآداب**. فالماضي هامٌّ لأنّه مضى، صنع لنا تاريخاً نتعلّم منه، لكن علينا نحن أن نكتب الجديد، ونكتشف كيف أنَّ الحي يولد من الميت، ونتابع مسيرة المقاومة والتجديد. فالعربيّة ليست لغتنا فقط، والعربيّة ليست انتماءنا فقط؛ العربيّةُ مستقبلٌ يولد كلّ يوم. تُسوّر باليأس ونحلم، تسوَّر بالموت ونحيا، تُسوَّرُ بالانحطاط وننهض.

علّمتنا **الآداب** أن لا نيأس، وعلّمتنا الانتفاضة أنَّ الانتفاضة ممكنة دائماً، وعلّمتنا بيروت أنَّ الحياة هي الأقوى.

بيروت